الزهد في شعر محمود سامي البارودي
Zuhd in the Poetry of Maḥmūd Sāmi al-Bārūdi

محمد ظاهر شاه[*]

Abstract

Unlike other world religions, Islam does not believe in negative forms of religious asceticism such as celibacy, monasticism and other types of harmful restrictive injunctions. Rather it calls for al-zuhd, which stands for satisfying with less and abandoning a part of the permissible for fear of getting into the impermissible. Arabic poetry throughout the ages is replete with the theme of renunciation of the world and self-denial. Some poets exclusively focused on the subject and earned great fame. Maḥmūd Sāmi al-Bārūdi, an Egyptian poet occupies a prominent position in such poets. The present paper discusses his poetry in this regard together with other literary features of his work.

الزهد له شأن كبير في الأدب العربي, لذلك اهتم العلماء والأدباء بالزهد والزهاد من الشعراء والعلماء في كل عصر من العصور الأدبية لذلك حاولت في هذا المقال توضيح فكر البارودي الديني وتزهده في الدنيا رغم أنه قضى معظم حياته في اللهو والمرح وملذات الدنيا لكنه لم ينس آخرته وتاب إلى الله عزوجل وبدأ ينصح الآخرين أن لايغتروا بمتاع الدنيا وزينتها الخادعة, وقد قسمت المقال إلى :

1–الإنسان وعقيدته

2–البارودي وفكره الديني وتزهده في الدنيا

أولا –الإنسان وعقيدته

انطلاقا من قول الله عز وجل: "…. فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ[1] .
وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ…)[2]

الإيمان بالله حقيقة عقلية توافق الفطرة, فإن العقيدة الإسلامية القائمة على الإيمان تؤدي للاستقراء الذي يكفل سعادة الإنسان[3],ومع أن الله عز وجل خلق الإنسان ,وجعله بجملته بين أحوال متضادة ,بين صيف وشتاء, وربيع وخريف, وعلم وجهل, وطاعة ومعصية, ودنياوآخرة

[*] المحاضر بمعهد الدراسات الإسلامية واللغة العربية–جامعة بشاور

,وجنة ونار, وصحة ومرض, ونوم ويقظة, ونور وظلمة، وقبض وبسط, وسرور وحزن, وفرح وهم ,وغنى وفقر, وعز وذل, وراحة وتعب, وجوع وشبع ,وشباب وهرم,وقوة وضعف, وحياة وموت، وجعل في نفسه مثل هذا التناقض ,والتقلب في الأحوال ... ,والحكمة من كل هذا أن تتعرف النفوس على ربها ,وخالقها[4] .

ثانيا: البارودي وفكره الديني وتزهده في الدنيا

إذا تتبعنا حياة البارودي فوجدناه تارة في المناصب العليا ,يعيش عيشا رغيداً ,يتغرد بأشعاره مناجيا مع الطبيعة ,وجمالها ,ومصر ,وأنهارها, وأشجارها ,وحدائقها, ومروجها ,وطيورها واصفا كؤوس الخمر في لياليه الطربة ,ومفتخرا بسيفه ,وشجاعته في ميادين الحرب التي أنشبت أظفارها في مختلف بقاع الدولة ,وذلك لأجل توتر الوضع السياسي, فتارة يقضي حياته في المنفى يحن إلى أهله ووطنه باكيا زوجه ,ومن مات من أصدقائه[5] ,لكنه لم ينسى خالقه ويرفع بصره ويعلن عن عقيدته الراسخة, وإيمانه القوي بالله عز وجل, ويقر بوحدانيته, وتمجيده ,يقول:

- ديني الحنيف وربي الله – وشهادتي أن ليس إلا هو
- لا جاه لي إلا بطاعته – ولنعم عقبى الطاعة الجاه
- أنا خاشع لجلال قدرته – متقلب الجنين أواه
- فأضالعي للوجد نار – ومحاجري بالدمع أمواه
- زهت القلوب بنور حكمته – وتعطرت بالذكر أفواه
- أنا أمة وحدى على سرف – في حبه والناس أشباه
- إن تاه غيري بالزمان فلي – قلب بذكر الله تياه[6]

رأينا في الأبيات شدة تعلق الشاعر بالله عز وجل ,فهو كثير التأوه ,والتضرع ,والدعاء, يظهر خشية الله تبارك وتعالى وقال: "أنا أمة وحدي على سرف في حبه "مشيراً إلى قول الله عز وجل" إن إبراهيم كان أمة، قانتا لله حنيفا".[7]

وكونه مؤمنا بالله عز وجل نصح وأرشد ,وحض على الجود والسخاء ,والإهتمام بصنع الخير, وإسداء المعروف إلى الناس، فإن رزق الله تعالى متصل لا ينقطع,وأعطياته كثيرة متتابعة ,لا تتوقف ولا تتخلف ,وباذل المال في الخير والإحسان ,إنما يبذل من مال الله في يده, وهو مع هذا قريب من الله ,وكما ذم البخل والجبن,وإنما يقع المرء في إثمهما ,ويحمل وزرهما ,وعارهما إذا ساء ظنه بالله الذي كفل الأرزاق ,وحدد الآجال ,وأمر بالبذل, والإحسان, ووعد الكرماء الشجعان بخيري الدنيا والآخرة ,ولا ريب أن قوة الإيمان ,وحسن الظن بالله عز وجل ,يعصمان الإنسان من النقائص والرذائل ويهديانه سبيل الفضيلة والرشاد، يقول:

- جد بالنوال، فرزق الله متصل – ولا تكن من ضيع الخير باللاهي
- فالبخل, والجبن في الإنسان منقصة – لم يجنها غير سوء الظن بالله[8]

ويستمد عقيدته ونظرية في خلق الإنسان ومماته من قول الله عز وجل: "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"[9]، موضحا بأن الله عز وجل خلق الإنسان في أطوار خلقه من نطفة أخرجتها، خالصة متميزة شهوة قوية تخرج من بين الصلب والترائب، بعثها وأثارها طبع أو استعداد قوي طبيعي، مركوز في الأعماق, وثم يهبط الطفل من رحم أمه بعد أيام معلومات إلى الأرض ,ويليه ويتصل به حركات الدنيا, ثم سكون الموت، يقول:

- أول النفس نطفة أخلصتها – شهوة صاغها مزاج دفين
- قذفتها إلى البطون ظهور – وحوتها بعد الظهور بطون
- كم أرسى بها هبوط يليه – حركات من بعدهن سكون[10]

فالإنسان أصله نطفة كانت قبل أن يولد في عالم الغيب ,وانتهت بالموت إلى عالم الغيب. أو كانت في مبدأ أمرها ميتة، ثم انتهت إلى الموت فمبتداها ومنتهاها متساويان متماثلان، والإنسان فيما بين البدء والنهاية ,يحيا في الدنيا حياة ضعف ومهانة, وقد مهد بهذا الشاعر التمهيد لذم الدنيا، يقول:

- فهي طوراً تكون في عالم الغيب – وطوراً في مثل ذاك تكون
- مبتداها ومنتهاها سواء – وهي ما بين ذاك حي مهين[11]

ثم زهد في الدنيا ,فأشار إلى كثرة رزاياها وبلاياها, واستنكر البكاء في إثرها ,لأن العقول السليمة الناضجة تنهى عن الحرص عليها ,والتفاني فيها، يقول:

- فعلام البكاء في إثر دار – بالرزايا فناؤها مشحون
- تتفانى الرجال حرصا عليها – وهو حرص أدى إليه الجنون
- حار فيها أرسططاليس، قدما – ونعاها الحكيم، أفلاطون[12]

وأشار إلى قصر عمر الإنسان في الدنيا وإقامته فيها قليلة مؤقتة محدودة وأنه سرعان ما يزايلها ويغارقها ,وشبه عمر الدنيا بالدفتر الذي يحوي ما لا يعرف له نظير من الصور, والتماثيل، والأشكال ,والأحوال ,وألوان العيش، وضروب الحياة وسير الموتى والأحياء، وإذا تصفحته رأيت في بعض صفحاته زمانا قد انقضى ,وطوى الموت أهله، ورأيت في بعضها دولة ورجالا يضطربون في الحياة، يقول:

- لعمرك ما الإنسان إلا ابن يومه – وما العيش إلا بثة وزيال
- وما الدهر إلا دفتر في خلاله – تصاوير لم يعهد لهن مثال
- ففي صفحة منه زمان قد انقضى – وفي وجه أخرى دولة ورجال[13]

لاحظنا أن البارودي استعمل أسلوب القصر, أو الحصر ,أو التخصيص ,وأكد الخبر بالقسم ,لأنه فرض في المخاطب الغفلة ,فاقتضى الحال إيقاظه من غفلته بقوة القسم وقوة التخصيص،

والغرض من هذه الأبيات الثلاثة ,العظمة والنصح والإرشاد والتبصير بقصر عمر الإنسان وقلة إقامته وسرعة فنائه وكثرة ما يحويه سجل الدهر وكتب التاريخ من العبر والعظمات التي تنبه الغافل, وتنذر الجاهل وتقفه على حقيقة الحياة الدنيا ,وتريه أنها قصيرة فانية متقلبة متغيرة لاثبات فيها ,ولا قرار "وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ".[14]

ولم يكتف –فقط– بذكر متاع الدنيا ,وأيامها القليلة, وألوانها المختلفة ,بل قام يدعو الناس إلى عفة اللسان ,والقلب وتطهيرهما من دنس الكذب, والغيبة, والنميمة ,والسعي بين الناس بالشر ,والفساد, والترفع بهما عن الخبث, والغش ,والخداع ,والمكر السيء الذي يضل النفوس ويوقعها في المكروه ,ويعميها من الهدى ,والرشاد، فإن العائب للناس الواقع في أعراضهم لا ينال منهم بوقيعته واغتيابه بقدر ما يسيء إلى نفسه, ويجلب لها المقت ,والخزي ,والعار, ويبوء بالفضيحة ,والذل والهوان، يقول:

– طهر لسانك ما استطعت ولا تكن – خباً يقرب للنفوس ضلالها
– إن الوقيعة لا تعود بخزية – أو سبة إلى على من قالها[15]

يبدو أن الشاعر اقتبس فكر دعوته هذه من قول الله عز وجل: "وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ".[16]

ثم بسط في دعوته ,ووعظه,ونصيحته مخاطبا من انخدع بزخرفها بأن لا يغتر بالآماني الكاذبة, والآمال الخلابة ,لأن الدنيا تغر أصحابها بهذه الألوان المغرية فيتهافنون عليها ويتكالبون، فلا تلبث أن تنحرف بهم عن الصراط السوي، وتصرفهم عن الزهد والعبادة، والعمل للدار الآخرة ,فتكون عاقبة أمرهم خسرانا, لأن كثيراً من الآمال التي انخدعوا بها وجروا وراءها ,قلما تتحقق لإنسان " كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ".[17]

– أيها المغرور مهلاً – لست للتكريم أهلا
– كيف صادفت الأماني – هل رأيت الصعب سهلاً
– خلتها ماء نميراً – فأشربن علا ونهلاً[18]

وفي سبيل العظة ,والإعتبار ,وجه الشاعر الأنظار إلى من طواهم الردى ,وأخنى عليهم الدهر من أهالي الديار الخاوية ,والمنازل الخالية، والقرى والبلاد الدوارس التي تردع المغرور ,وترد المعتبر إلى الهدى ,والرشاد كأنه يشير إلى قول الله عز وجل: "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ".[19]

وينبه على ما تصير إليه أبدان الحسان الغانيات بعد الموت من تعفن وقبح وفساد, والغرض تبصير المغرور بهذه المحاسن ونحوها، لعله يتعظ ويعتبر ,ولا يخدع بزخرف الدنيا وباطلها، يقول:

– أين أهل الدار؟ فانظر – هل ترى بالدار أهلا

- رب حسن في ثياب – عاد غسلينا ومهلا
- وعيون كن سودا – صرن عند الموت شهلا[20]

ثم يتوعد الباغي الظالم للناس المعتدي عليهم بشر العواقب، وأفضح العقوبات ,فهو ملعون منبوذ مبعد عن الخير مطرود من الرحمة الله مستأهل غضب الله ,وسوف يلقى الخزي ,والذل ,والفضيحة ,والعار ,والبلاء ,والشقاء ,والشر, والهون, ولا ريب أن البغاة الظالمين من الذين غرتهم الحياة الدنيا، وغرهم بالله الغرور، سوف يلقون خزيا وعارا,يقول:

- سوف يلقى كل باغ –في الورى خزيا وبهلا
- إنما الدنيا غرور – لم تدع طفلا وكهلا
- وكم حكيم ضل فيها – فاكتسى بالعلم جهلاً[21]

ويقتبس المعاني من قول الله عز وجل " كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [22]، و "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ[23]، و "قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ[24] ,و "أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ"[25]، في عدم ثبات الدنيا ,ومن عليها من الملوك ,وأصحاب الجبروت, والأموال والحسن ,والبهجة ,وجعل الدنيا خيالا باطلا ,ينصح الناس أن يختاروا تقوى الله في السر ,والعلن، يقول:

- كل حي سيموت –ليس في الدنيا ثبوت
- حركات سوف تفنى –ثم يتلوها خفوت
- وكلام ليس يحلو –بعده إلا السكوت
- أيها السادر قل لي –أين ذلك الجبروت
- كنت مطبوعا على النط –ق, فما هذا الصموت
- ليت شعري، أهمود –ما أراه ,أم قنوت
- أين أملاك لهم في –كل أفق ملكوت
- زالت التيجان عنهم –وخلت تلك التخوت
- أصبحت أوطانهم من –بعدهم ,وهي خبوت
- لا سميع يفقه القو –ل ,ولا حي يصوت
- عمرت منهم قبور –وخلت منهم بيوت
- لم تذد عنهم نحوس الد –هر إذ حانت بخوت
- خمدت تلك المساعي – وانقضت تلك النعوت
- إنما الدنيا خيال –باطل سوف ينوت
- ليس للإنسان فيها –غير تقوى الله قوت[26]

رغم كثرة ذكر البارودي للخمر, وتأثيرها في النفوس ,وليلة أنسه ,وطربه,ومرحه ,وذكر أيام شبابه ,أيام اللهو ,والسرور ,والشراب, والملذات, فإنه قد ذم الخمر, وذكر مفاسدها الروحية ,وحث على تركها ,والتوبة قبل أن يأتي الموت، يقول:

– فبئست الخمر من مخادعة –لسلمها في القلوب محترب
– إذ تفشت بمهجة قتلت –كما تفشى في المبرك الجرب
– فتب إلى الله قبل مندمة –تكثر فيها الهموم, والكرب
– واعتد على الخير، فالموفق من –هذبه الإعتياد والدرب
– وجد بما قد حوال فما –ينفع ,ثم اللجين والغرب.[27]

يؤمن البارودي بأن الله عز وجل هو المستعان ,وهو يكشف، ويجيب دعوة الداعي إذا دعاه ,لذلك رفع يديه أمام الله عز وجل ,ومد كفيه خاشعا متضرعا متوكلا على الله، يقول:

– يا من إليه الوجوه خاشعة – ومن عليه في الكون معتمدي
– مددت كفي إليك مبتهلا – وأنت حسبي فلا ترد يدي.[28]

ولم يكتف —فقط–بتضرعه أمام الله عز وجل ,بل أمر الأخرين أن يتضرعوا ,وأن يستوهبوا مغفرة الله سبحانه وتعالى ,فإنه يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء، يقول:

– فاضرع إلى الله، واستوهبه مغفرة – تمحو الذنوب, فجاني الذنب يعتذر
– واعجل، ولا تنتظر توباً غداة غد –فليس في كل حين تقبل العذر.[29]

وأيضاً حرض على تقوى الله، فقال:

– يأيها الناس اتقوا ربكم –واخشوا عذاب الله والآخرة.[30]

وضح البارودي عقيدته في قدرة الله عز وجل ,وصفاته في قصيدته النونية الزهدية ,وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، وصرح فيها بأن الله عز وجل ,هو الخالق, البارئ ,المصور, لجميع الكائنات والمخلوقات،محسوسات وغير محسوسات, بديع السموات والأرض، خلق الإنس, والجن، والمادة والروح، يقول:

– إن الثلاثين والخمس التي عرضت – ثنت قواي، وفلت غرب أشجاني
– وخلفتني على ما كان من طرب – بادي الأسافة في قومي وجيران
– يانفس لا تذهبي يأسا بما كسبت – يداك، فالله ذو من و غفران
– يعفو عن الذنوب حتى يستوي كرماً – لديه ذوا العمل المبرور والجاني
– هو الذي جعل الأفلاك دائرة – وصور الخلق من إنس ومن جان
– وقدر الشمس تجري في منازلها – والنجم ,والقمر الساري بحسبان
– وأرسل الغيث إرسالا برحمته – وأنبت الأرض من حب ,وريحان.[31]

أشار البارودي في هذه الأبيات إلى دلائل قدرة الله عز وجل ,منها أن النجوم معلقة في السماء ,والكوكب دائرة مسابحة في أفلاكها ,وكلها تابعة, وخاضعة لنظام الله تعالى التام ,لايعتريه تغيير

أو تبديل ,أو زيادة ,أو نقصان إلى أن يشاء الله تعالى إفناءه ,ومن دلائله المطر الذي يحي الله به الأرض بعد موتها مشيراً إلى قول الله عز وجل: "وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ"[32]، وقوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا[33]، وقوله تعالى: "وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ[34], وهذا هو توحيد الربوبية ,وضح فيه البارودي بأن الله خالق كل شيء ,وأنه ليس للعالم صانعان متكافيان في الصفات, والأفعال, وهذا التوحيد حق لا ريب فيه ,وهو الغاية عند كثير من أهل النظر ,والكلام ,وطائفة من الصوفية, وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم بل القلوب مفطورة على الإقرار به ,أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات, كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم "قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[35]

وقد أطال الشاعر الكلام في وحدانية الله تعالى ,والإقرار لها بكمال قدرته,وفيما تجري به ألستنا من وصف, وبيان, واطراء ,وحسن ,وثناء على الله تبارك وتعالى ينبغي أن لايتجاوز ما رسمه الله تعالى لعباده, وأراده منهم ,وجاء في كتابه المبين ,وعلى ألسنة رسله ,وأنبيائه ,وإذ تجاوزنا هذه الدائرة لم نأمن الإنحراف, والضلال ,والزيغ ,والإلحاد ,وأن ما يقوله الناس عن الله تعالى عز وجل ,وما يصفونه به ,يأتي على قدر أفهامهم, ودرجات إدراكهم، والله يعلم القريب والبعيد ,والحق والباطل من هذه الأقوال, والصفات ,وأن اختلاف درجات الفهم والإدراك ينتج اختلاف أقوال الناس عن الله تعالى، وأن العصمة والنجاة في التزام الدين، وما جاء في كتاب الله عز وجل وعلى ألسنة رسله ,لذلك منع الله عز وجل أهل الكتاب عن هذا وقال: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ[36]. وقال تعالى أيضاً "وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ[37]، يقول البارودي فيه:

– سبحانه جل عن وصف يحيطه به – وكيف يدرك وصف الدائم الفاني

– لقد تفرد في لاهوت قدرته – فماله أبداً في ملكه ثاني

– وإنما نحن نطريه كما سبقت – به الإرادة من وصف وتبيان

– كل يقول على مقدار فطنته – والله أعلم القاصي والداني[38]

ووضح عقيدته في حل المشاكل, والأزمات ,وانكشاف, الكروب ,وإتمام الحاجات, وينبغي للمسلم أن يثق بالله ,ويعتمد عليه في كل المحن ,والحاجات، يقول:

– وكن واثقا بالله في كل محنة – فلله أولى بالعباد وأرق[39]

أيضاً قال:

– فلا تعتمد إلا على الله في الذي – تود من الحاجات، فهو رحيم

– ولا تبتئس من محنة ساقها القضا – إليك فكم بؤس تلاه نعيم
– فقد تورق الأشجار بعد ذبولها – ويخضر ساق النبت وهو هشيم
– إذا ما أراد الله إتمام حاجة – أتتك على وشك وأنت مقيم[40]

أما حبه للرسول صلى الله عليه وسلم وعقيدته فيه ,فقد أظهر فكره في قصيدته الجيمية التي يتوق فيها إلى تقربه منه ويمدحه ,ويتوسل فيها بجاهه ,ويرجو رحمة من الله بسببه ومما قاله فيها:

– هيهات يسلك لوم العاذلين إلى – قلب بحب رسول الله محتزج
– هو النبي الذي لولا هدايته – لكان أعلم من في الأرض كالهمج
– أن الذي بت من وجدي بروضيته – أحن شوقا كطير البانة الهزج
– ها حب بذاكره نفسي فاكتست ولها – وأي صب بذكر الشوق لم يهج
– فما احتيالي ونفسي غير صابرة – على البعاد وهمي غير منفرج
– يا رب بالمصطفى هب لي وإن عظمت – جرائمي رحمة تغني عن الحجج[*]
– ولا تكلني إلى نفسي فإن يدي – مغلولة وصباحي غير منبلج[41]

ومدح البارودي الرسول صلى الله عليه وسلم في قصيدته الميمية الطويلة المسمى بكشف الغمة في مدح سيد الأمة "ومطلعها.

– يا رائد البرق يمم دارة العلم – واحد الغمام إلى حي بذي مسلم

وعدد أبياتها (447) بيت ويوضح في مقدمتها سبب نظمها ومضونها يقول:

فهذه قصيدة ضمنتها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من حين مولده الكريم إلى يوم انتقاله إلى جوار رب العالمين وقد بنيتها على سيرة ابن هشام ,وسميتها كشف الغمة في مدح سيد الأمة ورغبتي إلى الله أن تكون لي ذريعة أمت بها يوم المعاد وسلماً إلى النجاة من هول الحشر "اللهم فحقق رقبتي إليك واكسها بفضلك رونق القبول[42]. بعد ذكر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يقول:

– نظمتها راجيا نيل الشفاعة من – خير البرايا ومولى العرب والعجم
– هو النبي الذي لولاه ما قبلت – رجاة آدم لما زل في القدم
– حسبي بطلعته الفراء مفخرة – لما التقيت به عالم الحلم
– وقد صباني عطاء فاعتصمت بها – في كل هول فلم أفزع ولم أهم
– وكفى بها نعمة تعلو بقيمتها – نفسي وإن كنت مسلوبا من القيم
– فمدحه رأس ما لي يوم مفتقري – وحبه عز نفسي عد مهتضمي
– وهبت نفسي له حبا وتكرمة – فهل تراني بلغت السؤال من سلمى
– ولي بحب رسول الله منزلة –أرجو بها الصفح يوم الدين من جرمي
– لا أدعي عصمة لكن يدي علقت – بسيد من يرد مرعاته يسم
– خدمته بمدعي فاعتلوت على –هام السحاك وصار السعد من خدمي

- وكيف أرهب ضيما بعد خدمته – وخادم السارة الأجواد لم يضم
- أم كيف غذلى من بعد تسميتي – باسم له في سماء العرش محترم
- إني لمستشفع بالمصطفى وكفى – به شفيعا لدى الأموال والقحم
- وصل رب على المختار ما طلعت – شمس النهار ولاحت أنجم الظلم.[43]

وجملة القول أن فكر البارودي فكر إسلامي وزهده تقليدي وهو فيه عاقل حكيم يتبصر في هذه الدنيا والفانية ويتأمل في هذا الزمن الذي لا يجري إلا على رقاب العباد ولعله يحاول لمجاراة القدماء في هذا الموضوع.[44]

كأبي العتاهية الندى يرى الدنيا فانية ويحض على التقوى ويفري بالزهد في الدنيا والعمل للآخرة ولعل آباد القاهية آقام رأية في الدنيا كلها، على رأيه في مجتمعه السائدعيه الفساد والغدر والرياء وفقدان الوفاء، يقول:

- ألا نحن في دار قليل بقاوها – سريع تداعيها وشيك فناؤها
- نزور من الدنيا التقى والنهي فقد – تنكرت الدنيا وحان انقضاؤها
- غدا تخرب الدنيا ويذهب أهلها – جميعا وتطوى أرضها وسماؤها
- ترق من الدنيا إلى أي غاية – سموت إليها فالمنايا وراؤها.[45]

نرى في شعر البارودي هذه الأسباب لذم الدنيا واللذين لا يوفون في حياتهم لكن الأمر الذي يستدعي انتباه القارئ أن معظم قصائد البارودي تتضمن الزهد والنصيحة والحكمة والأمثال وخاصة في المنفي نراه يلتجأ إلى الله سبحانه وتعالى ويذكر صفاته ودلائل قدرته وينصح الأخرين أيضا بالزهد والثقة بالله عز وجل في جميع المحسن والأحوال.

الهوامش والمصادر

[1]. الروم: 30، المراد من الفطرت دين الله (معاني القرآن لأبي زكريا يحي بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي/ محمد على نجار/ عبد الفتاح اسماعيل شلبي، القرن الثاني: دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، د، ط: ت، ص: 317/2، ويقول الإمام الرازي: فطرة الله وهي التوحيد: انظر,مفاتيح الغيب، للإمام محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازي دار إحياء التراث العربي، بيروت، د/ ط/ ت، ص: 98/25, والإمام النيسابوري أراد من الفطرة: الدين ,انظر,الكشف والبيان عن تفسير القرآن ,لأبي اسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري, القرن الخامس– دار إحياء التراث العربي، بيروت – 1424هـ, ص: 5/2 وانظر الكشات عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأتاويل في وجوه التأويل ,للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمحشري (467–538هـ) ,دار الكتاب العربي، بيروت, 1407هـ ,ص: 479/3, وانظر, اختصار النكت للماوردي, للإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي الشافعي (578–660هـ), تحقيق الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي, دار بن حزم, بيروت ,الطبعة الأولى ,1417هـ - 1996م، ص: 865/1.

[2]. الجامع الصحيح لمحمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله (المتوفي 256هـ) ,دار الشعب ,القاهرة، الطبعة الأولى, 1407–1987م، ص: 125/2, رقم الحديث, 1385, ورواه مسلم

"ما من مولد إلا يولد) مكان (كل مولد يولد)، انظر الجامع الصحيح المسمى بصحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ,دار الجيل,بيروت, دار الآفاق الجديدة, بيروت, د/ ط، ت, ص: 52/8, رقم الحديث: 6926, وصححه الألباني انظرتخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية لمحمد ناصر الدين الألباني, المكتب الإسلامي, بيروت, الطبعة الثانية, 1414هـ، ص: 82

[3]. العقيدة الإسلامية,عقيدة عقلية تدفع إليها الفطرة الإنسانية، وتدعو إلى الإستقرار النفسي, ص: 4، لوجدان خليل الكركي محاضرة متفرغة بقسم علم النفس,كلية العلوم الإجتماعية, جامعة مؤته, الأردن – الدليل الالكتروني للقانون العربي.

Arab law info: Amman 11121 Jordan um-othayna, 6th circle-king Faisal street- building no: 38.

[4]. عظماء الدنيا وعظماء الآخرة, للدكتور مصطفى محمود قطاع الثقافة ,مطبوعات أخبار اليوم, الطبعة السادسة، د, مكان, ت,ص: 8

[5]. البارودي رائد الشعر الحديث، ص: 188، دار المعارف الطبعة السادسة. 2006م

[6]. ديوان البارودي: 4/181-183

[7]. سورة النحل: الآية: 120

[8]. ديوان البارودي: 183/4

[9]. الغافر: الآية: 67

[10]. ديوان البارودي: 4/120-121

[11]. ديوان البارودي: 123/4

[12]. ديوان البارودي: 4/122-123

[13]. ديوان البارودي: 218/3

[14]. سورة آل عمران: 185

[15]. ديوان البارودي: ص: 219/3

[16]. سورة فاطر الآية: 43

[17]. سورة النور، الآية: 39

[18]. ديوان البارودي: 3/257-258

[19]. سورة غافر، الآية: 21

[20]. ديوان البارودي: 3/259-259

[21]. ديوان البارودي: 259/3

[22]. سورة القصص، الآية 88

[23]. سورة الرحمن، الآية: 26

[24]. سورة الجمعة، الآية : 8

[25]. سورة النساء، الآية: 78

[26]. ديوان البارودي: 1/96-97

[27]. ديوان البارودي: 88/1

[28]. ديوان البارودي: 254/1

[29]. ديوان البارودي: 112/2
[30]. ديوان البارودي: 124/2
[31]. ديوان البارودي: 4/147-150
[32]. سورة الحج، الآية: 5
[33]. الأنعام، الآية: 99
[34]. سورة الرحمن، الآية: 10-12
[35]. سورة إبراهيم، الآية : 10، وانظر:شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ,تأليف قاضي القضاة ,العلامة صدر الدين على بن علي محمد بن أبي العز الحنفي (731-792),تحقيق أحمد محمد شام,مكتبة الرياض الحديثة ,بالرياض، د، ط، وت، ص: 20
[36]. سورة النساء، الآية: 171
[37]. البقرة، الآية: 168-169
[38]. ديوان البارودي: 4/150-151
[39]. ديوان البارودي: 354/2
[40]. ديوان البارودي: 3/519-520
[*]التوسل بالشخص الصالح أو الرسول صلى الله بذاته والتوجه به فهو موضوع بحاجة إلى التفصيل وخشية الإطالة نذكر ملخص ماذا له ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية يقول: "فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به، فيه أجمال غلط بسببه من لم يفهم معناه: فإن أريد به التسبب به لكونه داعيا وشافعا وهذا في حياته يكون أو لكون الداعي محبا له، مطيعا لأمره مقتديا به وذلك أهل للمحبة والطاعة والإقتداء، فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته وإما بمحبة السائل واتباعه، أو يراد به الإقسام به والتوسل بذاته فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه (شرح الطحاوية، ص: 184)، تأليف قاضي القضاء، العلامة صدر الدين على بن علي بن محمد أبي العز الحنفي، وانظر للتفصيل، التوسل أنواعه وأحكامه، ص: 29-49، للعلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى نسقه وألف بين نصوصه محمد عبد العباسي الطبعة الأولى للطبعة الشرعية الوحيدة، 1421هـ - 2001، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، وانظر للتفصيل من يرون التوسل ضروريا، "تعريف الأنام في التوسل بالنبي وزيارته عليه السلام للإمام العالم الورع المحقق أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحجاج وسهام الموحدين في حناجر المارقين للأستاذ الجليل أبي بكر مجنون وسهام الجلالة في أفئدة أهل الضلالة للعارف بالله الشيخ عبد الصمد أحمد الحسيني السنان، الطبعة الأولى: 1427هـ - 2006م، دار المصطفى للطبع والنشر والتوزيع، علما بأن هذه الرسائل الثلاث في مجلد واحد.
[41]. ديوان البارودي: 103/1، وانظر البارودي رائد النهضة الشعرية الحديثة ص: 93، تأليف الدكتور خليل الموسى أستاذ الأدب الحديث في جامعة دمشق، وجامعة الملك فيصل، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ - 1999م.
[42]. كشف الغمة في مدح سيد الأمة لمحمود سامي باشا البارودي: مصححة على نسخة الناظم المقروء عليه، طبعت بمطبعة الجريدة بسراي البارودي بغيط العدة بمصر سنة 1327 هجرية، ص: 2. وانظر ديوان البارودي: 233/4، وانظر البارودي رائد النهضة الشعرية الحديثة، ص: 93.
[43]. كشف الغمة في مدح سيد الأمة، ص: 44-48

[44]. البارودي: رائد النهضة الشعرية الحديثة، ص: 92

[45]. ديوان أبي العتاهية، ص: 4، عني بتحقيقها الدكتور شكرى فيصل مطبعة جامعة دمشق 1384هـ – 1965م، وانظر أبو العتاهية رائد الزهد في الشعر العربي، ص: 99-100، تأليف أسامة عانوتي رسالة لدرجة المساجتير في الآداب، بيروت، لبنان: 1957م.